أهمية علم مقاصد السور والآيات

اعداد الباحث :

حسام بغدادي عبد العليم عبدربه

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي نبينا محمد أشرف المرسلين و علي آله و صحبه أجمعين و من تبعهم بإحسان إلي يوم الدين.....

أما بعد ؛ فإنه إذا كان التفسير علمًا يراد به بيان معاني ألفاظ القرآن، و ما يستفاد منها توصلاً إلى الكشف عن مراد الله– تعالي– في خطابه للمكلفين فإن جانبًا مهمًّا لا يمكن إغفاله في فهم كلام الله و تفسيره ؛ أي إعمال المقاصد و اعتبارها في تفسير النص القرآني ، فلا يمكن تدبر القرآن و فهمه فهمًا صحيحًا بمعزل عن فهم مقاصده و غاياته ، و لقد كانت لبعض المفسرين إشارات و اجتهادات تدل علي اعتبارهم للمقاصد في تفسير القرآن سواء في ما فسروه من الآيات لفظًا وتركيبًا أو في ما استنبطوه و استخرجوه من أحكام قرآنية.

و لا يخفي ما بين مقاصد القرآن و مقاصد التشريع من تعلق ، فمقاصد التشريع بمعني : المعاني التي لاحظها الشارع في أحكامه و الغايات التي لأجلها وضع هذه الأحكام ، و التي لا تخرج عن جلب المصالح و درء المفاسد ؛ إنما هي مستمدة من أصل التشريع الأول- القرآن الكريم– و هي لذلك متضمنة في المقاصد العامة.

و قد بين هذه العلاقة إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي[1] ؛ حين ذكر ما انطوت عليه سور القرآن الكريم من المقاصد الكبرى و منها حفظ الدين ... و حفظ النفس و العقل و النسل و المال.

1( )الشاطبي: هو إبراهيم بن موسى بن محمد أبو إسحق الغرناطي، من علماء المالكية، كان إمامًا محققًا أصوليًا فقيهًا بارعًا في العلوم، له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة، من مؤلفاته الموافقات والاعتصام، توفي سنة (79هـ)، انظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي (بكسر الزاي والراء) الدمشقي، (1310 - 1396 هـ - 1893 - 1976 م), الأعلام, دار العلم للملايين, بيروت، (1980 م), الطبعة الخامسة، (2002م ، جـ1، ص 75).

و قد ظهر لي تناول هذا الموضوع من خلال الكشف عن بعض الجهود التفسيرية التي اهتمت بهذا الجانب من خلال توظيف المقاصد في القرآن الكريم "سورة سبأ أنموذجًا".

أهمية علم مقاصد السور والآيات:

لكل أمر غاية، و لكل حكم مقصد، و هذا منهج يجب أن يكون منطلقًا لكل إنسان في الحياة؛ فضلاً عن المسلم، فضلا عن حال المسلم مع كتاب الله- تعالى- .. و إذا كان هذا هو ما ينبغي أن تكون عليه حال المسلم فمن باب أولى أن يكون هذا حال العالم و المشتغل بكتاب الله تعالى.

و إذا كان للنظر المقاصدي و الفهم المقاصدي للإسلام مقومات ينبغي توافرها فيمن يتعرض للقرآن مقاصديًّا، فما مقاصد هذا النوع من التعامل مع القرآن، و ما غايات إعمال التفسير المقاصدي للقرآن العظيم؟. هذا ما نحاول رصده في السطور التالية:

أولا: امتثالا لأمر الله تعالى:

إن أول مقصد من التفسير المقاصدي للقرآن الكريم و سوره هو الامتثال لأمر الله- تعالى- بالتدبر، و قد نقلنا سلفا قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (2)، و قوله جل شأنه: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (3)، يقول صاحب الظلال في تفسير الآية الأخيرة: "و تدبر القرآن يزيل الغشاوة ، و يفتح النوافذ، و يسكب النور، و يحرك المشاعر، و يستجيش القلوب، و يخلص الضمير. و ينشئ حياة للروح تنبض بها و تشرق و تستنير، فهي تحول بينها و بين القرآن و بينها و بين النور؟ فإن استغلاق »؟ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها « قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء و النور!"(4).

ثانيًا: ترجيحًا لأقوال المفسرين:

2( ) سورة النساء، الآية (82)

3( ) سورة محمد، الآية (24).

4( ) انظر: تفسير الظلال، سيد قطب(3297/6).

من مقاصد التفسير المقاصدي للقرآن أو النظر المقاصدي فيه ترجيح الأقوال استنادًا إلى المقاصد القرآنية أو مقاصد الشريعة نفسها، و قد يكون الترجيح بناء على مقاصد كلية للقرآن الكريم، أو مقاصد خاصة أو جزئية، و لا يكون هذا الترجيح إلا مع منهج التفسير المقارن؛ ففي قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (5)، تحدث المفسرون: هل المقصود بمن يستأذن البصير و الأعمى؟ و ما عدد مرات الاستئذان: هل هي ثلاثة أم أقل أم أكثر؟.

أول مقصد من الاستئذان في قول الله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) (6)، هو كون البيوت مسكونة؛ إذ لا يأمن من يدخل عليها بغير استئذان أن يرى عورات الناس ، و ما لا يحل النظر إليه، أو ما لا يرغب أهل البيوت أن يراه الزائرون.

و قد بين الشيخ السايس طبيعة هذا الأدب و كيفيته مستندا إلى مقصد الحكم قائلا: و من الأدب في الاستئذان أنه إذا وقف المستأذن ينتظر الإذن فلا يستقبل الباب بوجهه ، بل يجعله عن يمينه أو شماله. و كان رسول الله- صلَّى الله عليه وسلَّم- إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، و لكن من ركنه الأيمن أو الأيسر.. قالوا : لأنّ الدّور لم يكن عليها حينئذ ستور. و لكن ينبغي أن يكون الأمر كذلك في الدور الآن ، و لو كانت مغلقة الأبواب عند الاستئذان ، فإنَّ الطارق إذا استقبلها فقد يقع نظره عند الفتح له على ما لا يجوز ، أو ما يكره أهل البيت اطلاعه عليه(7) .

س: هل هذا الحكم في حق البصير دون الأعمى؟ قال الشيخ السايس: و ظاهر الآية أنّ الاستئذان واجب على كلّ طارق ، و لو كان أعمى ، و بذلك قال العلماء ، لأنّ من عورات البيوت ما يدرك بالسمع ، ففي دخول مكفوف البصر على أهل بيت بغير إذنهم إيذاء لهم.

5( ) سورة النور، الآية (27).

6( ) سورة النور، الآية (29)

7( ) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس، (154/3)، والحديث أخرجه أبو داوود في السنن، كتاب الأدب، باب كم مرة يسلم، حديث رقم(5186)

فأما ما رواه الشيخان من قوله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: إنما جعل الاستئذان من أجل النظر"(8) فهو جار على الغالب ، و ليس الحصر فيه على سبيل التحقيق ، بل هو حصر ادعائي مبني على المبالغة ، و كمال العناية بالحث على حفظ النظر ، و سياق القصة التي قال فيها النبي- صلَّى اللَّه عليه و سلَّم- ذلك يدلُّ على ما ذكرناه ، فقد روى سهل بن سعد أنّه اطلع رجل في حجرة من حجر النبي لو أعلم أنّك تنظر « : صلَّى الله عليه وسلَّم، و مع النبي مدرى يحكّ بها رأسه فقال: و إذا كان الأمر كذلك ، لطعنت بها في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل النَّظر و كان القصد المبالغة و التشديد على ذلك الرجل الذي كان يطَّلع على حجرة النبي_ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم- علم الغرض من ذلك الحصر، و لم يكن في الحديث حينئذ دلالة على نفي أنه قد يكون الاستئذان من أجل السمع. فالمقصود إفادة أنَّ النظر من أقوى الأسباب التي شرع لها الاستئذان) (9).

و أما عن عدد مرات الاستئذان فقال: "و ظاهر الآية أنّ الاستئذان غير مقيّد بعدد، فإن استأذن مرة فأجيب بالإذن دخل، و إن أجيب بالرد رجع، و إن لم يجب فلا عليه أن يرجع. و قال بعض العلماء: إنَّ الاستئذان ثلاث مرات، فمن لم يؤذن له بعدهن فليرجع، إلا إذا أيقن أنَّ من في البيت لم يسمع، فإنّه يجوز له الزيادة على الثلاث. و الحكمة في هذا العدد أنَّ المرة الأولى لإسماع من في البيت، و الثانية : ليتهيؤوا، و الثالثة: ليأذنوا، أو يردوا(10).

س: هل الاستئذان مقصور على الرجال فقط دون النساء، أم أنه يشمل النساء مع الرجال؟ قال الشيخ السايس معتمدا على مقصد الأمر: "و ظاهر التعبير في الآية باسم الموصول الخاص بجماعة الذكور أنّ النساء ليس عليهن استئذان ، و لكنَّك تعلم أنّ الحكمة التي من أجلها شرع الاستئذان متحققة في الرجال و النساء معا ، و لهذا قال العلماء : إنّ في الآية تغليب الرجال على النساء ، كما هو المعهود في الأوامر و النواهي القرآنية المبدوءة بمثل

8( ) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان ، باب الاستئذان، حديث رقم(6241)، وأخرجه مسلم ، كتاب الأدب ، باب تحريم النظر، حديث رقم (2156)

9( ) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس (155/3)

10( ) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس (154/3)

هذا النداء، و على هذا يكون على المرأة إذا أرادت أن تدخل بيت غيرها أن تستأذن قبل الدخول. فإنّ الناس قد يكرهون أن يطلع بعض النساء على بيوتهم ، و يظهرن على ما فيها من أسراره (11) .

فأنت ترى في مثال واحد فقط كيف كان النظر المقاصدي في القرآن الكريم هو عماد القول، و أساس الترجيح، سواء في طبيعة الأدب الذي هو الحكم، أو في عدد أفراده و طبيعتهم رجالا ونساء، أو في عدد مرات الاستئذان، أو كان المستأذن بصيرا أو أعمى .. كل هذا ترجح القول فيه بل حُسم استنادا إلى المقاصد، و هو منهج يستخدم في مناهج التفسير جميعًا.

ثالثًا: استبعاد ما لا فائدة فيه:

و هذا مقصد مهم نستفيده من التفسير المقاصدي للقرآن الكريم و سوره، فكثيرًا ما يختلف المفسرون في تأويل آية من الآيات، و يقفون عند أشياء ما كان أغناهم عنها، و لو توقفوا عند حدود ما اهتم به القرآن لما خاضوا في بعض ما خاضوا فيه.

و هذا هو منهج القرآن و منهج الإسلام، و هكذا كان الصحابة– رضي الله عنهم– كانوا دائما لا يهتمون بما ليس تحته عمل، و قد كان أئمتنا و فقهاؤنا كذلك، فإمام دار الهجرة مالك بن أنس كان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، و يحكي كراهيته عمن تقدم.

ففي سورة النمل قال تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) (12)، هل هناك داع هنا للخلاف حول عدد الجيش الذي سخره الله– تعالى– لسليمان؟ أم أنه يكفينا أن نعلم أن الله – تعالى – قد سخر لسليمان جندًا من الجن و الإنس و الطير ، إلا أن عدد هؤلاء الجنود مرد علمه إلى الله – تعالى– وحده، و إن كان التعبير القرآني يشعر بأن هؤلاء الجند المجموعين ، يمثلون مركبًا عظيمًا، و حشدًا كبيرًا ؟.

11( ) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس (154/3)

12( ) سورة النمل، الآية (17) .

و في الآية بعدها قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَ يمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (13)، هل نحن بحاجة لمعرفة ما إذا كانت النملة ذكرًا أم أنثى؟ أم أنه يكفينا أن نعلم أن الله- تعالى- أوحى لهذه النملة بقدرته و جعلها سببًا في إنقاذ أمتها، و أن الله- تعالى- علم سليمان منطق هذه الحشرات، و تعامل معها بما علمه الله- تعالى- إياه؟. و لهذا قال الشوكاني في فتح القدير: "و لا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة، و لا بالتعرّض لاسم النملة، و لما ذكر من القصص الموضوعة، و الأحاديث المكذوبة")(14).

و في وجوه عدم استحسان الخوض فيما ليس تحته عمل يقول الشاطبي: و بيان عدم الاستحسان فيه من أوجه متعددة:

الوجه الأول : أنه شغل عما يعني من أمر التكليف الذي طوقه المكلف بما لا يعني، إذ لا ينبني على ذلك فائدة؛ لا في الدنيا، و لا في الآخرة، أما في الآخرة؛ فإنه يسأل عما أمر به أو نهي عنه، و أما في الدنيا؛ فإن علمه بما علم من ذلك لا يزيده في تدبير رزقه و لا ينقصه...

الوجه الثاني : أن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا و الآخرة على أتم الوجوه و أكملها، فما خرج عن ذلك قد يظن أنه على خلاف ذلك، و هو مشاهد في التجربة العادية؛ فإن عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة و الخروج عن الصراط المستقيم...

الوجه الثالث : أن تتبع النظر في كل شيء و تطلب عمله من شأن الفلاسفة الذين يتبرأ المسلمون منهم، و لم يكونوا كذلك إلا بتعلقهم بما يخالف السنة؛ فاتباعهم في نحلة هذا شأنها خطأ عظيم، و انحراف عن الجادة.. و وجوه عدم الاستحسان كثيرة(15).

رابعًا: فهم السورة و تيسير حفظها:

13( ) سورة النمل، الآية (18)

14( ) انظر: فتح القدير ، الشوكاني(1075)

15( ) انظر: الموافقات، الشاطبي(53/1)

من مقاصد التفسير المقاصدي لسور القرآن الكريم فهم السورة و استيعابها و تيسير حفظها، فمن تأمل في السورة بموضوعاتها التي تصب في موضوع واحد و غاية واحدة لم يكن من الصعب عليه أن يقف أمامه معنى، أو يتأبى عليه فهم موضوع من موضوعاتها، و أسرار إيراده .. إنه سيسلك موضوعات السورة جميعًا – بلا تعسف – إلى هدفها الكبير الذي تشير إليه كل موضوعات السورة .. و من ثم يمكنه أن يعبر عن السورة دعويًّا و اصلاحيًّا في مجتمعه و بين الناس. كما أن الذي ينظر للسورة نظر مقاصد يسهل عليه حفظها، و يتيسر عليه التعامل معها، فمن يقرأ ما كتبه صاحب الظلال قبل كل سورة سيشعر أنه استوعب السورة بل هضمها كما تهضم المعدة الطعام؛ ذلك، أن الفهم المقاصدي للسورة يعطي صورة شاملة للإنسان عن السورة، و ييسر على عقله تصور موضوعاتها و صلة كل موضوع بالآخر، و كيف تقيم هذه الموضوعات وحدة بنائية أو موضوعية للسورة كلها، و هذا مما ييسر الفهم و الاستيعاب والحفظ.

هذه من أهم المقاصد التي نجنيها من التعامل المقاصدي و النظر المقاصدي في القرآن الكريم، و لعل هناك مقاصد أخرى نستطيع الوقوف عليها عبر التأمل و التدبر و النظر المتأني لهذا الموضوع.

فهرس المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: المصادر

1. رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1990 م) .

2. رشيد رضا, الوحي المحمدي, دار الكتب ,الجزائر, (1408 هـ -1988م) .

3. رشيد رضا، ذكري المولد النبوي, وخلاصة السيرة النبوية , مطبعة المنار, مصر, الطبعة الأولى ,(1295 هـ) .

4. الطاهر بن عاشور، تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة، الطبعة الثانية، دار السلام، (1429هـ - 2008م) .

5. الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشركة التونسية للتوزيع، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية (1985م) .

6. الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة؛ مؤسسة دار سحنون للنشر والتوزيع ، الطبعة الأُولى (1427 هـ -2006م) .

7. الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، اختصره الإمام بن عاشور تحت عنوان "تفسير التحرير والتنوير" الدار التونسية للنشر، تونس (1984م) .

8. الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر،(1425 هـ - 2004 م) .

المراجع

أ - الرسائل والمخطوطات

1. أحمد بن محمد بن قاسم مذكو، "المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور من خلال سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران جمعاً ودراسة ونقداً" رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلومه من جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، شعبة التفسير وعلوم القرآن، (1429 هـ - 2008م).

2. إيهاب محمد اللمعي، "الاستنباط المصلحي من النصوص عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، دراسة أُصولية "، رسالة مقدمة إلى مجلس كلية الإمام الأعظم ؛ وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في أُصول الفقه من الباحث بإشراف الدكتور: محمد جمعة احمد السامرائي(1433هـ - 2012م) .

3. حماد العبيدي، "الشاطبي ومقاصد الشريعة الإسلامية", دار قتيبة دمشق, (1412 هـ -1992م) .

4. شقيق بن عبد الله شقير, "موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي, دراسة تطبيقية على تفسير المنار" ,المكتب الإسلامي بيروت ,(1419 هـ -1998م) .

5. عمر بن محمد بن عبد الله المديفر، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلومه، المملكة العربية السعودية، جامعة أُم القرى، كلية الدعوة وأُصول الدين، قسم الكتاب والسنة، شعبة التفسير وعلوم القران، تحت عنوان

"المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من سورة طه إلى سورة القصص جمعًا ودراسةً ونقدًا،(1432 هـ -2012م).

6. عبد الكريم حامدي (أستاذ محاضر في كلية العلوم الإسلامية ، جامعة باتنه، الجزائر)، "مقاصد القرآن من تشريع الأحكام"، دار بن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى(1429هـ-2008م) .

7. محمد بن حسين بن سعيد العمري، "منهج الطاهر بن عاشور في أصول الإعتقاد دراسةً وتقويمًا"، رسالة ماجستير مخطوط بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

8. ممدوح بن تركي بن محمد القحطاني، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلومه ، المملكة العربية السعودية، جامعة أُم القرى، كلية الدعوة وأُصول الدين، قسم الكتاب والسنة، شعبة التفسير وعلوم القران، بعنوان" المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور من سورة ق إلى آخر سورة الناس جمعًا ودراسةً وموازنةً "(1429 هـ - 1430 هـ).

9. منوبة برهامي، أُطروحة لنيل درجة الماجستير بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية ، قسم الشريعة، الجزائر، بعنوان "الفكر المقاصدي عند محمد رشيد رضا" .

10. نادين بنت مصطفى بنت علي السلمي، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلومه، المملكة العربية السعودية، جامعة أُم القرى، كلية الدعوة وأُصول الدين، قسم الكتاب والسنة، شعبة التفسير وعلوم القرآن، (1430 هـ - 2009م).